إيمانويل كانط..
والمذهب المثالي
الألماني (١٧٢٤-١٨٠٤م)

ايمانويل كانط

• ١- الطرق المؤدية إلى كانط:

لم يشهد التاريخ قدرًا من سيطرة الفلسفة على عصر من العصور مثلما حدث في عصر "ايمانويل كانط". فبعد ٦٠ عامًا من العمل الهادئ المنعزل، يهز كانط العالم بكتابه الشهير "نقد العقل الخالص". فبعد أن سادت فلسفة شوبنهاور فترة قصيرة وتسيدت نظرية التطور مجال الفلسفة بعد عام ١٨٥٩م، احتل نيتشه قلب المسرح الفلسفي في نهاية القرن التاسع عشر. إلا أن كل ذلك لم يكن سوى حركة سطحية تهدر تحتها فلسفة كانط الأشد عمقًا واتساعًا. ولا تزال فلسفة كانط قاعدة لكل فلسفة أخرى. فقد وافق نيتشه على كل ما جاء به كانط واعتبره من المسلمات. كما قال شوبنهور أن كتاب "نقد العقل الخاص" الذي كتبه كانط هو أعظم كتب التراث الألماني وأكثرها أهمية. كما يرى أن الإنسان يظل طفلاً إلى أن يفهم ما كتبه كانط. ولذلك يمكننا أن نقول عن كانط ما قاله هيجل عن سبينوزا: "حتى يكون الرجل فيلسوفًا لابد أن يدرس كانط أولاً."

لذلك يجب علينا دراسة كانط أولاً. لكن دراسته بطريقة مباشرة أمر صعب جدًا. ومن الأفضل أن نبدأ أولاً بقراءة ما كُتب عنه. ثم نقرأ بعد ذلك ما كتبه كانط نفسه. فكانط لا يحاول أن يكون واضحًا ولا يبذل جهدًا في ذلك، بل لا يقدم أمثلة حتى لا يطول كتابه، بالرغم من أنه بلغ ٨٠٠ صفحة بعد أن حاول كانط اختصاره. كما يرى كانط أنه يكتب للفلاسفة المحترفين ولا حاجة هناك لأن يستخدم الأمثلة والشرح والتوضيح. ومع ذلك فقد عجز فلاسفة عن فهم كتابه. وقد أرسل كانط نسخة من كتابه الشهير هذا إلى أحد أصدقائه المعروف بسعة اطلاعه وعمق تأمله، إلا أن صديقه أعاد الكتاب إليه بعد أن قرأ نصفه وقال إنه يخشى على نفسه من الجنون لو واصل قراءة

الكتاب إلى نهايته. فإن كان هذا هو حال الفيلسوف المفكر، فكيف يكون السبيل لفهم كتب كانط.

لذلك فإننا سنقترب من كانط بحرص شديد واهتمام تام.

من فولتير إلى كانط :

يشير اسم فولتير إلى عصر التنوير الفرنسي، عصر سيادة العقل. وقد أدى تأثر فلاسفة ذلك العصر بفولتير إلى تحمس فرانسيس بيكون وإيمانه بالعقل مما ألهم أوروبا كلها الثقة في العلم والمنطق والاعتماد عليهما في مواجهة كل مشكلات الإنسان والاتجاه نحو الكمال. لذلك فقد كتب "كوندورسي" وهو في السجن كتابًا عن النفس الإنسانية في عام ١٧٩٣م أوضح فيه أهمية العقل والمعرفة في القرن الثامن عشر. وقد اعتقد أن الحياة المثالية لن تتحقق سوى عن طريق تعليم عام شامل. فقد تغالى أهل باريس في تمجيد العقل إلى درجة كبيرة دفعتهم إلى تصويره في صورة حسناء من نساء باريس.

وقد ذهب سبينوزا بالعقل إلى الاعتماد على الهندسة والمنطق، حيث رأى أن الكون نظام رياضي يمكن وصفه باستخدام البديهيات المقبولة. كما توصل عقل بيكون إلى الإلحاد والنزعة المادية. واستمر الإيمان بالدين يتحطم أمام الإيمان بالعقل من عصر سبينوزا إلى عصر ديدرو. وقد أخذت العقائد الدينية في الاختفاء واحدة تلو الأخرى.

كما تمكن دعاة الإلحاد مثل هولباخ وغيره من نشر الإلحاد والكفر في صالونات باريس ونواديها ووصل الإلحاد إلى رجال الكنيسة أنفسهم. وتوجه لامتر إلى نشر الإلحاد في ألمانيا بدعم من ملك بروسيا نفسه. وانتصر العقل على الدين في تلك المعركة. إلا أن الدين الذي يحمل الأمل والرجاء لكل شعوب أوروبا كان لا يزال موجودًا في كل بقاعها، فقد تعمق في نفوس الناس بدرجة تمنعه من الاندثار أمام هجوم العقل المعادي له.

وما لبث الدين أن نهض وواجه موجة العقل والدعوة إلى الإلحاد وترك الديانات التي تعمقت في نفوس الناس لآلاف السنين. وهنا أثيرت التساؤلات:

- ما هو ذلك العقل الذي يحاول تدمير معتقدات يؤمن بها ملايين البشر في أنحاء العالم؟

- هل العقل منزه عن الوقوع في الخطأ ؟
- هل العقل عضو محدد في جسم الإنسان؟

وهكذا حان الوقت لمحاكمة القاضي الذي يسمى بالعقل ونقده، بعد أن نصب نفسه حاكمًا على كل شيء. وجاء كانط ووضع العقل موضع الاتهام وأخذ ينتقده والحكم عليه.

من لوك إلى كانط :

مهد كل من لوك وبركلي وهيوم طريق اختبار العقل. إلا أنهما توصلا إلى نتائج معادية للدين أيضًا.

وقد اقترح جون لوك تطبيق الاستقراء ووسائل فرنسيس بيكون على علم النفس. ثم كتب لوك مقالة عن العقل البشري. وهكذا بدأت الفلسفة في فحص الأداة التي تعتمد عليها أصلاً في التفكير وهي العقل. ولم تعد تأتمن العقل وضعفت ثقتها فيه.

لكنها واجهت أسئلة من قبيل ما يلي:

- من أين تبدأ المعرفة وكيف تنشأ ؟
- هل هناك آراء فطرية حول الله والخير والشر مثلما يقول الصالحون من الناس ؟
- هل هذه الآراء متوارثة، أي أن عقل الطفل يرثها منذ ولادته ؟

خشي علماء اللاهوت إن يزول الإيمان بالله من قلوب البشر، ففكروا في إمكانية الاعتماد على أن الآراء الرئيسية التي يقوم عليها الإيمان والأخلاق هي أمور فطرية غريزية في كل إنسان. لكن جون لوك لم يقبل تلك الافتراضات اللاهوتية رغم أنه مسيحي صالح، وكان على استعداد للدفاع عن المسيحية بفصاحة. إلا أنه أعلن أن كل أنواع المعرفة تأتي عن طريق الحواس. وقال إن العقل عند الطفل الوليد كالصفحة البيضاء الخالية من كل شيء. ومع تقدم العمر بالإنسان، تسجل حواسه معارفه وتجاربه على تلك الصفحة البيضاء بوسائل كثيرة. وهكذا توجد الذاكرة وهي تنتج الآراء. كل ذلك يؤدي إلى نتيجة مفزعة وهي أننا في النهاية لا نعرف أي شيء سوى المادة. فإن كانت الحواس هي ما نستمد منه معارفنا، فالمادة هي ما يستمد منه العقل أفكاره وآراءه.

وعلى الرغم من موافقته على المقدمات، اختلف جورج بركلي مع ما توصل إليه لوك من نتائج. فقد رأى أن الاعتماد على الحواس لا يكفي في حد ذاته. فإن كانت الحواس هي مصدر المعارف، فما قولنا فيما يعرفه الأعمى عن العالم الذي يحيط به، أو ماذا يفعل المشلول كي يتعلم ويتثقف ؟

لكن بركلي لم يتوقع ما قام به ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦م) فهز العالم المسيحي وهو لا يزال في السادسة والعشرين من العمر. فقد كتب رسالته عن البشر، وتعتبر هذه الرسالة إحدى روائع الفلسفة الحديثة.

يقول هيوم إننا لا ندرك بالحواس العقل كذات مستقلة، وكل ما ندركه هو آراء مستقلة وذكريات ومشاعر وغيرها. والعقل ليس عضوًا محسوسًا وليس جوهرًا قائمًا بذاته. إنه اسم مجرد لمجموعة من الآراء. فالعقل هو تلك المشاعر والأحاسيس والذكريات، وليس هناك نفس مرئية وراء عملية التفكير.

ونتيجة لذلك، قضى هيوم على العقل وقضى بركلي على المادة. ولم يتبق أي شيء. وهكذا أصبحت الفلسفة مجرد أنقاض دمرت بيد أهلها.

وإن كان بركلي قضى على المادة وأجهز عليها تمامًا إلا أنه أبقى على العقل وسلم بوجوده. فإن هيوم قضى على العقل والدين. إلا أنه لم يكتف بتدمير الدين عن طريق تدمير النفس وتشتيتها. فقد حاول تدمير العلم بنقض فكرة القانون أيضًا.

وبعد أن انهار العقل وانهارت المادة جاء كانط وقرأ ما كتبه ديفيد هيوم، ففزع من تلك الأفكار واستيقظت همته وأفاق من نعاسه الطويل. كما تعجب من استسلام الدين والعلم أمام الشك. فما العمل إذن من أجل تخليص الدين والعلم من تلك المأساة؟

من روسو إلى كانط:

نادى رجال عصر التنوير بأن ينتهي العقل إلى تأييد المذهب المادي، فرد عليهم بركلي بأن المادة لا وجود لها، ورد هيوم بأن العقل لا وجود له. أو أن العقل ليس المرجع النهائي في الحكم على الأمور.

وهكذا وقف "جان جاك روسو" الشاب وحده في فرنسا يقاوم المادية والإلحاد اللذين جاء بهما عصر التنوير الفرنسي.

وكان روسو شابًا عليلاً ضعيف الجسد، كما لم يجد أي تعاطف أو دعم حتى من والديه ومعلميه. فانطوى على نفسه وابتعد عن الحياة العملية وفضل حياة الفكر والتأمل. هرب من عالم الحقيقة إلى عالم الأحلام. حيث يعوضه الخيال عما حرمته منه الدنيا من حب وتعاطف وصحة.

وفي عام ١٧٤٩م فاز مقال كتبه روسو بعنوان "هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى فساد الأخلاق أم إلى إصلاحها؟" ثم بدأ في تأليف الكتب وكتب عن تفوق الشعور على العقل في قصة بعنوان "هلواز". كما ألف كتابًا بعنوان "أميل". وخلاصة ما قاله روسو هو أنه على الرغم من أن العقل يتجه اتجاهًا معاديًا للإيمان بالله والدين والخلود، إلا أن الشعور يؤيد ذلك الإيمان بشدة. وعلينا أن نثق في شعورنا الفطري بدلاً من الاستسلام للشك العقيم الذي يجرنا العقل إليه جرًا.

عندما قرأ كانط كتاب روسو"أميل" انجذب له تمامًا وألغى كل شيء بما في ذلك نزهته المفضلة تحت أشجار الزيزفون وأقبل على قراءة الكتاب ولم يتركه إلا بعد أن انتهى من قراءته. وجد كانط أن هناك رجلاً آخر يشق طريقه مبتعدًا عن الإلحاد والكفر. ورأى أن كتاب روسو يحمل نصف الجواب على كل التساؤلات. فجمع كانط كل خيوط هذا الجدل ودمجها مع بعضها. فجمع بين آراء بركلي وهيوم[١] وتمجيد روسو للشعور وإنقاذ الدين من العقل، وجعل هدفه في نفس الوقت هو إنقاذ العلم من الشك. وكانت هذه هي المهمة التي كرس لها كل جهوده.

• ٢- كانط نفسه:

ولد كانط في كونسبرج[٢] في بروسيا عام ١٧٢٤م. لم يغادر مسقط رأسه إلا لفترة قصيرة كان يُدرس فيها في قرية مجاورة لمدينته. أحب كانط وهو معلم صغير في السن وقصير القامة تدريس الجغرافيا وأصول السلالات البشرية. وهو من أسرة فقيرة

(١) - ورد في هذا الفصل أسماء مثل بركلي وهيوم وجان جاك روسو وغيرهم، وكلهم فلاسفة معاصرون لكانط أو سابقون له بسنوات قليلة. (المترجم)

(٢) مقاطعة ألمانية تقع في بروسيا الشرقية، لكنها تتبع الآن جمهورية روسيا الاتحادية، حيث ألحقت بالاتحاد السوفيتي بعد الحرب العالمية الثانية وسميت «كالينينجراد». (المترجم)

نزحت من اسكتلندا منذ بضع مئات من السنين. وكانت أمه متدينة وشديدة التمسك بالشعائر الدينية دون تهاون أو تساهل.

وبحكم النزعة الدينية القوية عند الأم، تعمق كانط في الدين منذ الصباح إلى المساء. وقد أدى ذلك إلى نتيجتين وهما:

- هذا التشدد في العبادة أدى به إلى الابتعاد عن الكنيسة عندما اشتد عوده وكبر.
- احتفظ وجهه بصفة الكآبة التي تعلو وجه أي ألماني متدين.

وعندما كبر كانط في السن، شعر بضرورة المحافظة على أصول الإيمان الذي غرسته فيه أمه وهو طفل. كما لم يكن لمن نشأ مثله في عصر فولتير وفردريك الثاني أن يبتعد عن تيار الشك الذي ساد في أوروبا في تلك الفترة. وقد تأثر بمن جعلهم شغله الشاغل، فكان يهدف إلى دحض أفكارهم. وقد أثر فيه عدوه المفضل "ديفيد هيوم" أكثر من غيره. وسنرى فيما بعد كيف تخلى كانط عن أفكاره المحافظة واتجه إلى اعتناق مذهب الأحرار وإلى الإيمان بالحرية والدعوة لها أيام فردريك الأكبر.

وكان من الممكن أن يُحكم عليه بالإعدام آنذاك، إلا أنه كان في السبعين من العمر عندما توصل إلى تلك الرؤية، فشفع له سنه الكبير. وعندما نقرأ كتب كانط في مرحلته الأخيرة يبدو لنا أننا نقرأ كتب فولتير. وذلك واضح حتى عندما حاول استرداد هيبة الدين وتخليصه من الشك الذي تعرض له.

وقد رأى شوبنهور أن من بين أدلة التسامح الفكري وحرية الرأي في عهد فردريك الكبير أن كانط نشر كتابه "نقد العقل الخالص". حيث من المتعذر على معلم يعمل في أي حكومة أن ينشر مثل ذلك الكتاب. وذلك على الرغم من أن كانط تعهد أمام خليفة ذلك الملك العظيم بأن يتوقف عن الكتابة في تلك الموضوعات الحرة.

وفي عام ١٧٥٥م، بدأ كانط عمله كمحاضر في جامعة كونسبرج، وظل يحاضر هناك لمدة ١٥ عامًا. وقد رفضت الجامعة تعيينه أستاذًا فيها مرتين. إلا أنه عين أستاذًا للميتافيزيقا في عام ١٧٧٠م. وبعد سنوات من العمل بالتدريس ألف كتابًا عن فنون التعليم والتدريس. وكان معلمًا أفضل منه كاتبًا، وقد أحبه الطلاب حبًا شديدًا. وكان يرى أن الطلاب الأغبياء لا جدوى من مساعدتهم، أما المتوسطون فهم يتقدمون بالعناية والمتابعة والدعم من المعلم، والنوابغ ليسوا بحاجة إلى دعم من أحد.

لم يتوقع أي من الطلاب أن يخرج معلمهم ليهز العالم بنظام جديد من الميتافيزيقا. وهو نفسه لم يتوقع ذلك. كتب وهو في الثانية والأربعين من عمره يقول: "من حسن حظي أني محب للميتافيزيقا، لكن عشيقتي لم تطلعني إلا على القليل من جمالها ومحاسنها." وكان في ذلك الوقت يرى أن البحث في الميتافيزيقا، كمصارعة الأمواج في محيط مظلم.

في سنواته الهادئة، ركز كانط على البحث في الطبيعة وليس فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا). فكتب عن الزلازل والكواكب والنار والرياح والبراكين والجغرافيا ومئات الموضوعات الأخرى.

وكانت نظريته عن الأجرام السماوية (١٧٥٥م) تشبه نظرية "لابلاس"، فقد حاول أن يقدم تفسيرًا لحركة الكواكب وتطورها. ويرى كانط أن جميع الكواكب سكنها أحياء أو سيسكنوها. ويرى أن أكثر الكواكب بُعدًا عن الشمس عليها كائنات تسكنها ولا تشبه الإنسان بل هي أعقل وأرقى وأسمى منه كثيرًا. وتعمق كانط كثيرًا في مراحل تطور الإنسان على الأرض ووصف الانتقال من مرحلة إلى أخرى. وربما يكون قد أراد أن ينقل لنا صورة لانتقال الإنسان من الوحشية إلى الحياة المدنية التي يعيشها الآن.

وهكذا كان تطور فيلسوفنا بطيئًا، وكانت حياته روتينية تمامًا. حيث يبدأ يومه بشرب القهوة، ثم يكتب بعض أعماله، ثم يلقي المحاضرات. ثم يتناول الغداء وفي تمام الثالثة والنصف يشاهده الجيران دائمًا وهو يخرج للنزهة تحت أشجار الزيزفون في الشارع الذي يقطن فيه، والذي يسمي "شارع نزهة الفيلسوف" إلى يومنا هذا. وقد استمر على هذا الحال طوال حياته، وفي الأيام شديدة البرودة كان خادمه الكهل يتبعه وهو يحمل مظلة اتقاء للمطر.

وكان كانط ضعيف البنية، ويحب الحفاظ على نفسه لأنه يؤمن بأن الوقاية خير من العلاج واستشارة الأطباء. وقد عاش ثمانين عامًا، وكتب وهو في السبعين مقالاً عن مقاومة المرض بقوة العزيمة.

وكانت عاداته صحية ولا يتخلى عنها، فكان لا يتنفس إلا من أنفه، ولا يتحدث مع أحد أثناء النزهة اليومية لأن ذلك يضطره إلى التنفس من الفم، وهو يفضل الصمت

على الإصابة بالبرد. كما تدخلت فلسفته حتى في طريقة ربط جواربه وكانت أربطتها تمر من جيوب بنطلونه[1].

وقد ظل بلا زواج طيلة حياته بسبب التفكير الطويل قبل اتخاذ قرار الزواج مرتين. في المرة الأولى، فاز بالسيدة التي يريد الزواج منها من هو أسرع وأكثر شجاعة منه[2]. وفي المرة الثانية، انتقلت أسرة السيدة التي أحبها وعاشت في مدينة أخرى قبل أن ينتهي من التفكير واتخاذ قرار الزواج. وربما يكون قد اعتقد -مثل نيتشه- أن الزواج سيحول بينه وبين البحث عن الحقيقة.

وهكذا واصل كانط حياته في فقر وغموض، إلى أن انتهى من كتابة كتابه الأعظم في عام ١٧٨١م بعد أن استغرق في كتابته خمسة عشر عامًا. فأحدث كتابه هذا ثورة في عالم الفلسفة لم يحدثها أي كتاب آخر.

• ٣- نقد العقل الخالص:

المقصود من عنوان الكتاب "نقد العقل الخالص" أن كانط لا يريد مجرد النقد، بل يريد النقد التحليلي. حيث لم يهاجم العقل بل أراد إظهار إمكانياته. فالعقل الخالص في نظره معناه المعرفة التي لا تأتي عن طريق الحواس. إنها معرفة مستقلة تمامًا عن كل أنواع الحواس أو التجربة. إنها معرفة خاصة بالإنسان بحكم طبيعة العقل وتركيبه. وكان كانط يريد أن يعرف إن كان في طبيعة العقل ما يمكنه من الوصول إلى معرفة دون الاعتماد على ما تعكسه الحواس من العالم الخارجي.

في البداية تحدى كانط ما جاء به "لوك" والمدرسة الإنجليزية، وقال إن المعرفة ليست مستمدة كلها من الحواس. كما رد كانط على "هيوم" فقال إنه توصل إلى نتائج زائفة لأنه اعتمد على مقدمات خاطئة. وكان هيوم قد زعم أن كل معارف الإنسان تأتي عن طريق الحواس المختلفة.

وفي كتاب "نقد العقل الخالص" يقدم لنا كانط تحليلاً مفصلاً لأصل الأفكار،

---

(١) - كانت الجوارب ليس لها جزء مطاطي علوي يرفعها إلى أعلى وكان من المعتاد أن يرتدي الرجل الجورب ثم يضع رباطًا فوقه في الجزء العلوي حتى لا يتدلى الجورب. ومن الواضح أن كانط كان مهتمًا بهذا الأمر جدًا لدرجة أن يجعل رباط الجورب يمر من داخل البنطلون عبر فتحة في الجيب. (المترجم)

(٢) - التردد آفة من الممكن أن تصيب أي إنسان حتى ولو كان فيلسوفًا. (المترجم)

واختبارًا لأصل النظريات والأفكار وتحليلاً لتركيب العقل الموروث. وهو يرى أن هذه هي قضية الميتافيزيقا. يقول: "أستطيع القول بأنني استهدفت الكمال في هذا الكتاب. كما يمكنني أن أؤكد أنه لا توجد قضية واحدة من قضايا الميتافيزيقا إلا ولها حل في هذا الكتاب. وإن لم يكن لها حل، فهناك على الأقل مفتاح لتناولها."

يدخل الكتاب فورًا في صلب الموضوع، يقول كانط في كتاب "نقد العقل الخالص" :"التجربة ليست المجال الوحيد الذي يكوّن فهمنا، لذلك فالتجربة لا تقدم لنا أي حقائق عامة، وهي تثير العقل المهتم بنوع محدد من المعرفة بدلاً من أن تقنعه وترضيه. لذلك لابد أن تكون الحقائق العامة الضرورية مستقلة عن التجربة وواضحة ومؤكدة في ذاتها، أي أننا سنكون بلا حاجة لإجراء تجربة لإثبات تلك الحقائق. فلا يمكننا أن نقول إنه من الممكن أن تظهر الشمس من الغرب بدلاً من الشرق، أو أن نقول إن هناك أخشابًا لا يمكن أن تحرقها النار، وندعي أنها حقائق. فهي أشياء بحاجة إلى التجربة. أما إن قلنا إن ٢+٢=٤ فهذه حقيقة ثابتة ليست بحاجة إلى تجربة. ولكن من أين نحصل على مثل تلك الحقائق المطلقة؟ بالطبع لن تكون التجربة هي المصدر، بل إن تلك الحقائق تستمد مصداقيتها من خلال التركيب الفطري لعقولنا. وذلك لأن عقل الإنسان ليس متاحًا للأحاسيس والتجارب لتملي عليه إرادتها المطلقة المتقلبة، بل هو عضو نشط يربط بين الأحاسيس والأفكار، كما يمكنه تحويل الأفكار الكثيرة غير المنتظمة إلى وحدة فكر منظم ومرتب.

الحس السامي:

يسمي كانط دراسة التركيب الفطري للعقل أو قوانين الفكر الفطرية بالفلسفة السامية. وذلك لأنها أكبر وأرقى من التجربة الحسية. يقول: "أنا أسمي المعرفة سامية لأنها لا تهتم كثيرًا بالأشياء بقدر ما تهتم بأفكارنا الفطرية البديهية عن تلك الأشياء." وهناك مرحلتان لتحويل الإحساس البسيط إلى فكر مكتمل، وهما:

- المرحلة الأولى: تنسيق الأحاسيس الآتية من الخارج وتطبيق قالبي الإدراك والحس وهما الزمان والمكان عليها.
- المرحلة الثانية: تنسيق المدركات الحدسية الناتجة عن المرحلة الأولى وإخراج المدركات العقلية منها.

ولكن ما معنى كلمات: أحاسيس - مدركات؟ وكيف يغير العقل تلك الأحاسيس ويحولها إلى مدركات؟

الأحاسيس ما هي إلا الوعي بالدافع أو الحافز. كأن يشعر اللسان بطعم أو تشم الأنف رائحة أو يشعر الجلد بالحرارة. وكذلك هناك ما تراه العين وتمسه اليد. وهذه هي المادة الخام التي تبدأ بها التجربة. وهي ما يمر به الطفل في أيامه العقلية الأولى. وهي خبرات لم تبلغ درجة المعرفة لأنها منفصلة ومتفرقة. لكنها إن اجتمعت حول شيء ما في الزمان والمكان، مثل وجود تفاحة قريبة منك مثلاً، وشممت رائحتها ورأيتها ولمستها بيدك وتذوقتها، يتحول الإحساس إلى معرفة.

والأحاسيس تنتقل لنا عن طريق آلاف من الأعصاب الموجودة في البشرة والعين والأذن واللسان وترسلها إلى المخ. ياله من تدفق كبير للعديد من الإشارات في نفس الوقت. لذلك فليس من العجيب أن يتحدث أفلاطون عن لغط الحواس. فإن تُركت تلك الإشارات وشأنها دون تنظيم، فستكون الفوضى. ومثال ذلك هو القائد العسكري الذي يصله رسائل من مئات من مواقع الحرب على الجبهة، فتتراكم الرسائل ولا يعلم القائد شيئًا عما يحدث. لكن إن كان هناك من يصنف الرسائل وينظمها، يسهل التعامل معها ويساعد القائد على وضع الخطة اللازمة.

ومما هو جدير بالذكر أننا لا نستجيب لكل ما نتلقى من رسائل عصبية، بل إننا نختار منها ما يمكن التعامل معه وصياغته والاستجابة له بما يناسب رغباتنا في تلك اللحظة. مثلما أنك لا تلاحظ دقات الساعة في الأوقات العادية، إلا أن سمعك يلحظها بشدة عندما تكون في انتظار حدث مهم. وكذلك فإن الأم ترقد في هدوء بجانب طفلها النائم وهي تغط في نوم ولا تسمع أي شيء من حولها، إلا أنها تقوم من نومها لمجرد حركة خفيفة من وليدها. وهذا يدل على أننا نختار من مدركاتنا الحسية ما يوفي بأغراضنا. مثلما نختار أن نجمع ٢ و ٣ فيكون الناتج ٥ أو نضرب ٢ في ٣ فيكون الناتج ٦. هنا اختلفت النتيجة لاختلاف الغرض. ففي المسألة الأولى كان غرضنا هو الجمع وفي المسألة الثانية كان غرضنا هو الضرب.

ويعتقد كانط أن من يشرف على اختيار المدركات وتنسيقها هو العقل. وهو يستخدم وسيلتين بسيطتين جدًا لترتيب ما لديه من مواد. هاتين الوسيلتين هما

الزمان والمكان. فكما يرتب الضابط المسئول عن تلقي الرسائل حسب المكان الواردة منه والترتيب الزمني الذي وردت فيه، يرتب العقل الإحساسات التي تأتيه من العالم الخارجي حسب الزمان والمكان. كما يربط بينها وبين أشياء أخرى حدثت في الماضي.

وإن كان الزمان والمكان من المسلمات المثبتة بالاستدلال العقلي، فإن قوانينها -وهي قوانين الرياضيات- مسلم بها أيضًا. وهكذا أنقذنا الرياضيات وقوانينها من شك "ديفيد هيوم" المتناقض.

ولكن، هل من الممكن أن ينطبق ذلك على باقي العلوم أيضًا؟ نعم بالطبع، وذلك إن أثبتنا صحة ما بها من قوانين أساسية. وهذا ممكن إن وجدنا أن هناك قانونًا موروثًا في جميع مراحل الفكر وفي الزمان والمكان، ولا يمكن تصور تجربة قد تحدث في المستقبل وتخالفه.

التحليل السامي:

هكذا انتقلنا من مجال المدركات الحسية الفسيح إلى غرفة الفكر الضيقة. انتقلنا من الحس السامي إلى المنطق السامي. فالعقل هو تنسيق وتنظيم التجربة. وإن كان العقل عند لوك وهيوم مجرد قطعة جامدة من الشمع تشكلها التجربة الحسية كما تريد، فإن العقل عند كانط نشيط وفعال. فهو يتلقى التجربة ويرتبها ويصوغها لتصبح فكرًا. ولتوضيح ذلك، تخيل أننا في مكتبة بها فهرس كروت تصنيف الكتب، والكروت موضوعة في أدراج ترتبها أبجديًا حسب الموضوع، وفي أدراج أخرى حسب اسم المؤلف. فلو نثرنا هذه الكروت على الأرض عشوائيًا لفقدت قيمتها. لكن، هل لنا أن نتصور أن تعود الكروت إلى ترتيبها المنطقي وتدخل كل مجموعة في الدرج المخصص لها من تلقاء نفسها، ثم يعود كل درج إلى مكانه !! هذا هو المنطق العجيب الذي يقدمه لنا دعاة الشك، حيث يرون أن الأحاسيس إن وصلت إلى العقل يمكنها أن تنظم نفسها وتتحول إلى فكر مرتب.

ومن هنا نستطيع أن نقول إن لهذا العالم نظامًا، لكنه نظام غير موجود في العالم نفسه، بل هو موجود في ذلك الفكر الذي عرف ذلك العالم وأدركه ونظمه. وتأتي المرحلة الأولى من ذلك الفكر بترتيب التجارب الحسية وتنتهي بالعلم والفلسفة. فقوانين الفكر هي قوانين الأشياء أيضًا، أي أن قوانين العقل هي قوانين الطبيعة. وكما

قال "هيجل" إن قوانين المنطق وقوانين الطبيعة شيء واحد، وهكذا يندمج المنطق مع الميتافيزيقا. وهكذا يحتوي الفكر على كل تجارب الماضي والحاضر والمستقبل. ولذلك فالعلم مطلق وخالد.

المنطق السامي :

ومع كل ذلك الذي ذكرناه، فإن إطلاق تعميمات المنطق والعلم محدود ونسبي. فهو محدود بميدان التجربة الحقيقية، كما أنه نسبي مرتبط بتجربتنا البشرية. وذلك لأن الناس لا يصادفون إلا تجاربهم، فإن وقع الشيء في حدود التجربة يمكن التعامل معه. أما إن وقع الشيء خارج حدود التجربة لا نشعر به.

ولا يعني هذا الكلام أن كانط يشكك في وجود المادة والعالم الخارجي. لكنه يرى أننا لا نعلم عن العالم الخارجي والمادة أي شيء يقيني سوى وجودهما فقط. وما نعرفه تفصيليًا عنهما يختص بمظهرهما الخارجي فقط.

وهكذا فإن العقل الذي لا يمكنه أن يتجاوز حدود الظواهر الحسية يجعل من كل محاولة يقوم بها العلم والدين لتعريف الحقيقة النهائية تنتهي إلى أن تكون مجرد محاولة نظرية. ومهمة المنطق السامي العسيرة هي فحص شرعية محاولات العقل للتملص من دائرة الحس والظواهر والدخول إلى عالم الأشياء في ذاتها، وهو عالم مجهول.

إلا أن هناك معضلة لا حل لها، وهي ناتجة عن محاولة العلم تخطي مرحلة التجربة. فإن حاول العقل معرفة ما إذا كان محدودًا أم لانهائي، فإنه يقع في مشكلات وتناقضات. كما أنه يقع في مشكلة مماثلة إن بحث في أمر بداية زمنية للعالم. وذلك لأن اللانهاية في الزمان والمكان أمور لا يمكن للعقل أن يتصورها. وذلك على الرغم من أن كل ما نمر به من تجارب لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا إذا صغناه زمانيًا ومكانيًا وسببيًا.

ويقع الدين أيضًا في نفس المشكلة والمغالطة، وذلك عندما يحاول اللاهوت أن يبرهن أن الروح خالدة لا يمكن فسادها. وأن إرادة الإنسان حرة ولا تخضع لقوانين النسبية. وأن الكون موجود بالضرورة. وهنا يجب على المنطق السامي أن يذكّر

اللاهوت أن العنصر والسببية والضرورة ما هي إلا صور محدودة يطبقها العقل لترتيب وتنظيم التجربة الحسية.

وهكذا ينتهي الكتاب الأول في النقد، وكأننا نتخيل "ديفيد هيوم" وهو يستعرض هذه النتائج التي توصل إليها كانت، وهو يضحك متهكمًا. فهو كتاب كبير يشغل ٨٠٠ صفحة، ويحاول وضع حلول لكل مشكلات الميتافيزيقا وإنقاذ العلم والدين.

لكن ما هي منجزات هذا الكتاب في الحقيقة؟ فقد خرب الكتاب عالم العلم البسيط وحصره في علم المظاهر السطحي. فإن تجاوز ذلك انتهى بالوقوع في كثير من التناقض.

كما أن الكتاب يتناول في فصاحة موضوعات الدين وحرية الروح والخالق، ويرى أنها أمور لا يمكن للعقل إثباتها وإقامة الدليل عليها. وبهذا أنقذ الدين من أن يكون مجالاً للجدل[1]. إلا أن رجال الدين في ألمانيا رفضوا هذا الإنقاذ وانتقموا واحتجوا بشدة، كما أنهم لم يكتفوا بالاحتجاج، حيث أطلقوا اسم "إيمانويل كانط" على كلابهم.

ولا غرابة إذن في أن يقارن "هيني" بين "كانط" ضعيف البنية وصغير الجسم و"روبسبير"، فيقول إن "روبسبير[2]" المخيف لم يقتل سوى ملكًا واحدًا وعدة آلاف من الفرنسيين. هذه الجريمة قد يتسامح فيها الألماني، أما جريمة كانط فقد تجرأ على الله وقوض أركان اللاهوت. وقد رأى "هيني" أن كانط هز العالم وأرعبه، بينما يبدو لمن يحيطون به في مدينة "كونسبرج" مجرد معلم فلسفة يحيونه عند خروجه لنزهته اليومية بهز رؤوسهم ويضبطون ساعاتهم.

---

(١) - ناقش كانط أمور الدين واللاهوت من وجهة نظر الذي لا يريد الصدام مع رجال الدين والكنيسة. وقد تناول هذه الموضوعات بحرص وغموض وتناقض لذلك لم يسلم من الاتهام بالكفر والتجرؤ على الله. (المترجم)

(٢) - هو ماكسميليان روبسبير (١٧٥٨-١٧٩٤م) : محام وزعيم سياسي فرنسي. أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، والنصير الرئيسي لعهد الإرهاب (وهو فترة مليئة بالعنف شهدتها فرنسا بعد اندلاع الثورة الفرنسية بسبب الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة). اتسمت تلك الفترة بأحكام الإعدام الجماعية لمن وصفوا بأنهم "أعداء الثورة" والتي راح ضحيتها الآلاف . ويعد روبسبير من أشهر السفاحين على وجه الأرض، إذ قتل ستة آلاف شخص في ستة أسابيع فقط. (المترجم)

• ٤- نقد العقل العملي:

إن كان الدين لا يقوم على أساس من العلم واللاهوت، فعلام يقوم إذن؟ فقيام الدين على اللاهوت غير آمن ويعرض الدين للخطر. لذلك فمن الأفضل أن نتخلى عن اللاهوت النظري ونقضي عليه بالابتعاد بالدين عن حكم العقل وسيادته. حتى لا يفسدها العقل المعرض للوقوع في الأخطاء. وليقم الدين على أساس من الأخلاق. ويجب أن تكون أسس الدين الأخلاقية مطلقة وليست مستمدة من نتائج التجارب.

فالأخلاق أمر فطري في البشر لا يستمد من التجربة، وكل ما تأمرنا به الأخلاق من صفات حميدة يعتبر أساسًا للدين، ويجب أن تكون عامة ومطلقة مستمدة من فكر الإنسان.

وقد يقع كثير من الناس في الخطأ أو يرتكبوا الآثام التي تتعارض مع الأخلاق الفطرية. لكن من الفطرة أيضًا أن يشعر الإنسان بالجرم الذي ارتكبه أو الذنب الذي يقع فيه. حيث يرتكب الإنسان السخافات وينوي عدم الوقوع فيها مرة أخرى. لكن ما هو ذلك الشيء الذي يجعلنا نشعر بالذنب ونلوم أنفسنا على الوقوع في المعاصي، إنه الضمير. وإن كانت الحكمة أمر افتراضي وشعارها الأمانة إن كانت تؤدي إلى نتائج سياسية، نجد أن الأخلاق التي بداخلنا مطلقة وبلا شروط.

وطبقًا للقانون الأخلاقي المفطور بداخل الإنسان، فإن العمل يكون صالحًا ومقبولا وفاضلاً، ليس بسبب ما ينتج عنه من نتائج طيبة أو لما فيه من الحكمة، ولكن لمجرد أنه يتفق مع الشعور الداخلي الفطري بما يجب أن يحدث. إنه الواجب الذي لا مناص من القيام به.

وهذا يؤكد حريتنا التامة. فكيف لنا أن نتصور أن أمرًا ما واجب لابد من عمله إن لم نكن أحرارًا. هذه الحرية لا يمكن إثباتها نظريًا. إلا أننا يمكن أن نثبتها عمليًا إن استطعنا الاختيار ما بين سلوكين. إنها حرية الاختيار.

وإن كنا قد استنتجنا أن الإنسان حر من خلال صوت الواجب الذي جبلنا عليه، فإننا نشعر أيضًا بخلود الإنسان حتى وإن كنا لا نستطيع إقامة الدليل عليه. والحياة لا تسير مثلما يحب الناس، فهم يحبون عقاب المسيء ومكافأة المحسن. لكن الحياة لا عقاب

فيها ولا ثواب. والحياة تعلمنا أن حكمة الثعبان أفضل من رقة الحمامة. لكن وعلى الرغم من علمنا بذلك وتأكدنا من أننا نواجه الخطايا والآثام بل والجرائم في كل يوم وفي كل مكان، إلا أننا لا نزال نحب التقوى والفضيلة والأعمال الصالحة.

وأخيرًا، فإن الدليل الذي توصلنا من خلاله إلى إثبات حرية الإنسان وخلوده يعتبر برهانًا على وجود الله. فإن كنا نؤمن بالخير والشر والثواب والعقاب، فلابد أن يكون هناك من يتولى ذلك ويعاقب المخطئ ويثيب المحسن.

• ٥- حول الدين والعقل:

لم يكن كانط فيما دعا إليه مبتذلاً أو رجعيًا، بل كان جريئًا وشجاعًا حين أنكر اللاهوت النظري. ورفض أن يكون الدين قائمًا على العقل. إلا أن جميع رجال الدين في ألمانيا احتجوا على ذلك. وكانت تلك العاصفة من الاحتجاج تتطلب من كانط شجاعة كبيرة. وقد ظهرت تلك الشجاعة وهو في السادسة والستين من العمر عندما نشر كتابه "نقد الحكم" ثم كتابه "الدين في حدود العقل الخالص" وهو في التاسعة والستين من العمر.

وفي بداية الكتابين، يعود كانط إلى الرأي القائل بأنه مادامت هناك غاية يهدف إليها هذا العالم، ففي ذلك دليل على وجود الله. وكان قد رفض ذلك الرأي في كتاب سابق وهو "نقد العقل الخالص".

أما "رسالة في الدين" فقد كانت تتويجًا لإنتاج رجل عظيم مثل كانط بعد أن تجاوز التاسعة والسبعين من العمر. وقد بلغ كانط في هذه الرسالة منتهى الشجاعة حين قال بأن الدين لا يجب أن يقوم على أساس منطق العقل النظري. بل يجب أن يقوم على العقل العملي للشعور الأخلاقي. أي أن الكتاب المقدس أو أي وحي إلهي يجب أن يحكم عليه بقيمته الأخلاقية، ولا ينبغي أن يكون الكتاب نفسه هو الحَكَمْ والقاضي الذي يرجع القانون الأخلاقي إليه.

كما أن قيمة الكنائس والمعتقدات الدينية تعود إلى مقدار تعاون الجنس البشري وقدرته على تطور الأخلاق ورقيها.

كما أن الكنيسة الحقيقية هي جماعة من الناس يجمعهم ويوحدهم ولاؤهم لقانون أخلاقي واحد مهما اختلفوا أو انقسموا فيما بينهم. وقد عاش المسيح حياته من أجل تأسيس مثل تلك الجماعات. حيث أسس هذه الكنيسة الحقيقية التي تقضي على نفاق ورياء رجال الدين وطقوسهم الشكلية. لقد قرب المسيح بين الرب والعباد، لكننا أخطأنا فهمه واستبدلنا ذلك بالتقريب ما بين العباد والرهبان.

ومرة أخرى تعود الطقوس والعادات الدينية إلى الظهور وتحل محل الحياة الفاضلة الطيبة. وبدلاً من ارتباط الناس ببعضهم برباط الدين انقسموا في مئات من المذاهب. ويصل الانحراف عن الدين إلى أحط الدرجات عندما تصبح الكنيسة أداة مرنة في يد حكومة رجعية.

لقد كان كانط جريئًا حينما نشر أفكاره تلك في ألمانيا في ذلك الوقت الحرج. كان فردريك الأكبر قد مات وخلفه فردريك وليام الثاني، وكان رجعيًا بشدة. وقد أقال الملك وزير التعليم وأتى بمن هو أشد منه ليمنع تدريس بعض الكتب ويتعسف في ذلك. ولم يكن كانط قد تأثر بذلك بعد، فلم تضايقه الحكومة لكبر سنه. حيث رأى بعضهم أنه طاعن في السن ولا يقرأ كتبه سوى القليل من الناس. ومن يقرأ كتبه لا يفهمها.

لكن ما حدث كان عكس ذلك، فعندما نشر كانط كتابه عن الدين، كان أسلوبه شديد الوضوح، فلم يفلت من يد الرقابة وأمرت المطبعة المكلفة بطباعته بالامتناع عن طبعه أو نشره.

ثار كانط وأظهر شجاعة لا مثيل لها لا يتوقعها أحد من رجل في السبعين من العمر. فأرسل كتابه إلى مدينة خارج بروسيا وكلف أصدقاء له بطبعه ونشره. فأمر الملك بإرسال رسالة حكومية إليه، جاء فيها: "لقد أسأت إلى ذاتنا العالية... أنك أسأت استعمال فلسفتك لتقوض أهم مبادئ الكتاب المقدس الأساسية وتهدم الديانة المسيحية. ونأمرك أن توضح موقفك بدقة وبأسرع ما يمكن. كما نتوقع أن تتوقف عن إهانة الدين في المستقبل، وأن تستخدم مواهبك فيما يتفق مع واجبك. أما إذا رفضت ما آمرك به، فتوقع منا ما لا يسرك."

أجاب كانط على هذه الرسالة بأنه يجب أن يكون لكل عالم حق في التعبير عن

رأيه في الأمور الدينية[1]. وأن تكون حريته في نشر آرائه بين الناس مطلقة، لكنه وعد بالصمت طوال حكم الملك الحالي.

لام المؤرخون كانط لرضوخه للملك، لكننا يجب أن نقدر أنه كان في السبعين من العمر، وكان عليلاً وضعيفًا لا يقوى على المقاومة. هذا بالإضافة إلى أنه كان مقتنعًا بأنه قام بواجبه بالفعل.

• ٦- حول السياسة والسلام الدائم:

كان من الممكن أن تتسامح الحكومة في بروسيا مع كانط إن اقتصرت آراؤه على الدين فقط. لكن لم يكن من السهل أبدًا أن تتسامح مع آرائه السياسية في تلك الحقبة. فبعد ٣ سنوات من اعتلاء فردريك وليم عرش بروسيا اندلعت الثورة الفرنسية فتزلزلت أوروبا بالكامل. وفي حين هرع أساتذة الجامعات إلى الملك لتأكيد ولائهم، استقبل الكهل كانط أخبار الثورة بالفرح والابتهاج. فقال للمقربين منه وهو يبكي: "أستطيع الآن أن أقول يا إلهي اسمح لعبدك أن يفارق العالم بسلام، فقد رأيت إنقاذك لنا."

وكانت نظرية كانط في السياسة التي سبق أن قدمها في عام ١٧٨٤م تبدأ بالاعتراف بوجود نزاع بين الفرد والمجتمع، لأن الناس لو كانوا يميلون جميعًا إلى النزعة الاجتماعية، لسكنت همة الإنسان وقل نشاطه. لذلك لابد من الخلط ما بين النزعة الفردية والتنافس الجماعي من أجل بقاء جميع البشر وتنافسهم وتعاونهم أيضًا. فالصراع من أجل البقاء ليس شرًا، إلا أن الناس رأوا وضع قيود وأحكام له مع التزامه بالعادات والقوانين. ومن هنا بدأ المجتمع المتمدن في الوجود والتطور.

وإن استعرضنا تاريخ الجنس البشري لوجدنا أنه يتجه إلى تحقيق خطة خفية للطبيعة تستهدف إقامة نظام سياسي كامل يسمح بتطور كل إمكانيات وطاقات البشر تطورًا تامًا. ولولا ذلك التطور لضاعت جهود الأعمال المدنية المتعاقبة هباء.

وتعتبر رسالة كانط "السلام الدائم" تطورًا كبيرًا حول موضوع الأخلاق. فيشكو حال

---

(١) - كبر سن كانط وضعف بنيته التي لم تعد تتحمل السجن قاداه إلى الإمساك بالعصا من المنتصف. فقد أعلن رأيه صراحة في رسالة إلى الملك، ثم تعهد بعدم الحديث مرة أخرى في نفس الموضوع. (المترجم)

البلاد قائلاً: "لم يعد مع حكامنا أي مال لينفقوه على تعليم الشعب، فكل مواردهم المالية موجهة للاستعداد للحرب التالية." وكان يرى أن الدول لن تتمدن حقًا إلا بعد تسريح جيوشها وإلغائها. وهذا الاقتراح شديد الجرأة، فقد كانت بروسيا أولى الدول التي تطبق نظام التجنيد الإجباري على جميع الشباب. وهو يرى أن الجيوش عبء على الدولة في حالة السلام، حيث يؤمن الجيش ما يلزمه من مؤن في حالة الحرب من خلال نهب بلاد العدو. أما في حالة السلام فإن استدعت الضرورة فإن الجيش ينهب أبناء بلاده حتى لا يرهق الدولة بميزانية ضخمة.

ويرى كانط أن ذلك التوجه العسكري في أوروبا سببه هو التوسع الأوروبي في آسيا وأفريقيا وأمريكا، وما ينتج عن ذلك من صراع للصوص على نهب الغنائم وقتالهم من أجل مزيد من الغنائم. يقول: "سلوك الاستعمار الأوروبي في كثير من بلاد العالم مشين وبعيد عن الإنسانية. وخاصة ما قامت به الدول التجارية في قارتنا الأوروبية. فالمظالم التي ترد من تلك الدول تصيبنا بالفزع. فقد اعتبرت الدول الأوروبية الاستعمارية أن كل الدول التي تدخلها مباحة تمامًا ولا تخص أحدًا بمجرد أن تطأها أقدامهم، حدث ذلك في أمريكا وأفريقيا ورأس الرجاء الصالح، ولم يكن هناك أي قيمة للسكان الأصليين. هذه الجريمة ارتكبتها أمم تملأ الدنيا حديثًا عن تقواها وورعها. وفي الوقت الذي تتجرع فيه أمم مسكينة الظلم، تعتَبر الأمم الظالمة نفسها مثالاً للورع والتدين !!"

وقد أرجع كانط هذا الظلم الاستعماري إلى نظام حكم القلة الذي ساد أوروبا، حيث كانت الغنائم تعطى للقلة الحاكمة. أما الحكومات الديموقراطية، فكانت توزع الغنائم على الشعب، وهكذا يكون نصيب الفرد ضئيلا ولا يغري بأي حال على المخاطرة بالمشاركة في الحرب.

وقد دعا كانط إلى "السلام الأبدي" ووضع شروطًا لذلك منها ما يلي:

- أن يكون الدستور المدني في كل الدول دستورًا جمهوريًا.
- لا يمكن إعلان الحرب إلا بعد استفتاء جميع المواطنين.

وبهذا نضمن عدم قيام أي حرب لأن الشعوب ستختار السلام بلا شك. وبذلك لن يكتب التاريخ بالدم كما هو الحال في تلك الفترة. وكان يرى أن الحكم المطلق وترك قرار الحرب في يد القلة الحاكمة يساعد الحكام على الاستهانة بقرار الحرب، فبلاط

قصورهم ورحلات صيدهم وحياتهم لن تتأثر بشيء، والشعب هو من سيدفع الثمن.

وقد ملأ الأمل روح كانط عندما انتصرت الثورة الفرنسية على جيوش الرجعية في عام ١٧٩٥م وتمنى أن ينتشر النظام الجمهوري في جميع أنحاء أوروبا. وأن يسود العالم نظام دولي ديموقراطي يلغي الرق والاستغلال وينشر السلام. وذلك لأن المهمة الأولى للحكومة هي مساعدة الفرد ومعاونته وليس استغلاله وانتهاك حقوقه.

كما دعا كانط إلى المساواة بين أفراد المجتمع، وإتاحة الفرص الكافية أمام كل المواهب والمهارات الموجودة عند الجميع. كما رفض كل أنواع الامتيازات الطائفية سواء كانت أسرية أو طبقية. ويقول أن أسباب تلك الامتيازات هي أعمال الغزو والعنف التي مكنت أسر تلك الطبقات من تحقيق هذه الامتيازات بالقوة.

لقد واجه كانط الرجعية الأوروبية وملوك أوروبا الذين كانوا يتمنون سحق الثورة الفرنسية والقضاء عليها. وقد اتخذ هذا الموقف رغم أنه كان في السبعين من العمر. فقد دعا في كل مكان إلى إقامة نظام ديموقراطي. ولم يقل شجاعة وإخلاصًا عن الشباب. إلا أن شيخوخته غلبته، وانتهت به إلى خرف بسيط تحول فيما بعد إلى جنون مؤذ. وفي عام ١٨٠٤م فارق الحياة في هدوء.

• ٧- نقد وتقييم:

لكن كيف استطاعت الأفكار التي نادى بها كانط الصمود طوال قرن من الزمان؟ وكيف استطاع الجمع بين المنطق والميتافيزيقا وعلم النفس والأخلاق والسياسة وبقيت أعماله إلى يومنا هذا؟

قد يرد البعض بأن ما قدمه من فلسفة نقدية كانت ذات أهمية بالغة في تاريخ الفكر على الرغم من ضعف بعض التفاصيل. لكن أول ما يمكن أن نأخذه من نقد فهو عن تصور كانط للمكان. فقد رأى كانط أن المكان صورة حسية ليس لها حقيقة مستقلة عن العقل. لكن الإجابة عن هذا هي: نعم و لا.

نعم، لأن المكان فكرة ذهنية تظل فارغة حتى تمتلئ بما يمكن إدراكه حسيًا. ولا.. لأن هناك ما يحدث في المكان دون أن يدركه الإنسان حسيًا. وفي هذه الحالات يستقل المكان عن الإدراك الحسي. ومثال ذلك دورة الأرض حول الشمس كل سنة،

فهي تحدث في المكان دون أن يدركها الإنسان بحواسه. لكن ليس صحيحًا ما زعمه كانط من أن الإنسان يتلقى إحساسات لا مكانية يضفي عليها عقله المكان، بل الصحيح هو أننا ندرك المكان في نفس الوقت الذي ندرك فيه الأشياء.

كما أن الزمان ليس حقيقة ذاتية فقط، بل هو موضوع قائم بحد ذاته دون تدخل من الإنسان. فالشجرة تنمو لفترة طويلة ثم تجف وتسقط أو تتلاشى سواء أدركنا كم من الزمن مر عليها أم لم ندرك ذلك.

وقد قالت نظرية النسبية ما قاله كانط عن الزمان والمكان. إلا أنه قال إن الحقيقة مطلقة وهذا هو ما أخذه عليه المحدثون. فكثير منهم يرون أن جميع العلوم نسبية حتى الرياضيات الدقيقة نسبية في حقيقتها، وهكذا أصبح العالم يؤمن بنسبية الحقيقة ولا يطالب بأي حقيقة مطلقة.

على أن أعظم ما قاله كانط هو أن الإنسان لا يعلم من العالم الخارجي إلا ما يأتيه عن طريق الحواس، وأن العقل ليس صفحة بيضاء عاجزة عن العمل ومجرد مستقبِل لما يأتيه من الحواس. حيث أن له دور إيجابي يقوم به بتجربة وإعادة بناء ما يتوصل إليه.

وقد تناول نقاد القرن التاسع عشر ما ذكره كانط في نظريته عن الأخلاق بالنقد الشديد. فرأى كثيرون أن شعور الإنسان بالأخلاق ليس ناتجًا عن أخلاق فطرية كما قال كانط، لكنه مكتسب مما أودعه المجتمع في الفرد من قواعد للسلوك، كما رأوا أن الضمير مكتسب وليس فطريًا. والإنسان يكتسب أخلاقه نتيجة تطور يستغرق سنوات طوال. كما أن الأخلاق ليست عامة ومطلقة، ولكنها قوانين تحكم السلوك وهي تتطور وتتغير تبعًا لما هو ملائم لحياة المجتمع.

وقد أدت التربية الدينية التي تلقاها كانط في شبابه وحياته الخشنة وشعوره بالواجب وقلة حبه لملذات الحياة إلى ميله للأخلاق الذي أدى به إلى حب عمل الواجب من أجل أنه واجب فقط. وقد واجه بذلك كل مذاهب الأنانية وعبادة اللذة والسرور التي تمسك بها هلفيسيوس وهولباخ بسبب الحياة البائسة التي عاشوها.

على أن ما يلفت الانتباه في فلسفة كانط هو أنه عاد في كتابه النقدي الثاني إلى الحديث عن الله وحرية الإرادة والخلود وهي أفكار تخلى عنها في كتابه الأول. وقد

أدى ذلك بأحد النقاد إلى القول بأن أعمال كانط تشبه سوقًا شعبية لا يمكنك شراء أي شيء منها. لكن شوبنهور يعتقد أن كانط كان شاكًا في الدين ذاته، إلا أنه تردد في هدم إيمان الناس حتى لا يقضي على الأخلاقيات العامة.

لكننا لا يجب أن ننجرف إلى الاعتقاد بأن كانط كان ملحدًا من داخله وأنه كان يبطن ذلك الإلحاد. فحماس كلماته في مقال "الدين في حدود العقل الخالص" تدل على إخلاص لا شك فيه. كما أن محاولاته لتغيير الأسس الدينية من لاهوت نظري إلى لاهوت أخلاقي ومن عقيدة إلى سلوك تدل على عقلية دينية متعمقة.

كما واجه كتابه "نقد العقل الخالص" كثيرًا من أوجه النقد وكثيرًا من التعليقات الحادة. فقال بعضهم "إن كتاب نقد العقل الخالص محاولة يقوم بها شاك يحاول هدم المعرفة اليقينية. وقال أصحاب مدرسة الشك إن هذا الكتاب يحاول تجسيد صورة جديدة لليقين في العقائد على حساب هدم الأنظمة الماضية. أما المعتقدون بما وراء الطبيعة فيرون أن الكتاب حيلة خبيثة لمحو الأسس التاريخية للدين وإقامة المذهب الطبيعي. وقال الماديون إن الكتاب مثالية تحاول إنكار حقيقة المادة. ورأى الروحانيون إنه حصر للحقيقة في العالم المادي دون مبرر لذلك."

أما بالنسبة لتأثير آراء هذا الكتاب فيكفي إن نقول إن أفكار القرن التاسع عشر كلها كانت تدور حول ما ورد في ذلك الكتاب. وبدأت ألمانيا تتحدث عن الميتافيزيقا بعد صدوره. وقد درسه كل من شيلر وجوته واقتبس بيتهوفن كلماته المشهورة في أعماله الموسيقية. كما توالت أعمال فخته وشلنج وهيجل وشوبنهور بأنظمة فكرية خاصة بهم إلا أنهم استمدوا ثقافتهم منه. وبعد صراع طويل امتد لقرن من الزمان بين مثالية كانط ومادية عصر التنوير، كان النصر حليفًا لكانط.

• ٨- ملاحظات عن هيجل:

ولد جورج فريدريك هيجل في شتوتجارت عام ١٧٧٠م، وكان والده موظفًا في وزارة المالية. وكان هيجل نهمًا في القراءة فقرأ كثيرًا من الكتب وأعد لها تحليلاً مفصلاً. وقد تحمس لقراءة الفلسفة اليونانية بشدة وبقي ذلك التحمس في نفسه للنهاية. وقد رأى

أن المثقف الألماني يجد نفسه عندما يكون في بيته يقرأ كتب الفلسفة اليونانية. وقد فضل لفترة دين اليونان على المسيحية. كما أنه ألف كتابًا أنكر فيه ألوهية المسيح ومعجزاته، وقال إنه ابن مريم ويوسف[1]. إلا أنه مزق الكتاب فيما بعد.

جورج فريدريك هيجل

كما كان ثائرًا في السياسة أيضًا حيث دافع بشدة عن الثورة الفرنسية، وقام بغرس شجرة الحرية في صباح أحد الأيام في سوق المدينة. حصل على شهادة في اللاهوت وفقه اللغة في عام ١٧٩٣م ورد فيها الثناء على أخلاقه وتفوقه في اللاهوت. وكان فقيرًا في بداية حياته فعمل بالتدريس لعدة سنوات ساعدته على ترتيب أفكاره ومعتقداته. وبينما كانت أوروبا تتمزق، كان هيجل يحسم أمره وينمي أفكاره.

وفي عام ١٧٩٩م مات أبوه وترك له مبلغ يعادل ١٥٠٠ دولار فشعر بأنه غني وترك التدريس. وفضل الحياة في مكان تتوفر فيه بساطة الحياة وكثرة الكتب. فوصل إلى مدينة "بينا" في عام ١٨٠١م وفي عام ١٨٠٣م عين أستاذًا في جامعتها.

---

(١) - حاشا لله، إنما هو المسيح عيسى بن مريم، عبد الله ورسوله، خلقه الله دون أب. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (سورة مريم) (المترجم)

وفي عام ١٨٠٦م انتصر نابليون على جيش بروسيا ودخل تلك المدينة الصغيرة وساد الرعب والفوضى في كل مكان. ودخل الجنود بيت "هيجل" إلا أنه كان قد لاذ بالفرار ومعه نسخة أول كتاب ألفه وهو "علم تجسد الروح". وعاش بعد ذلك فترة من الفقر المدقع، حتى أن أصدقاءه كتبوا رسائل يطلبون من بعضهم مساعدته بالمال. وفي عام ١٨١٢م عمل مديرًا في مدرسة ثانوية في "نورنبرج"، وفي فترة عمله بالمدرسة ألف كتاب "المنطق" الذي أثار العالم أجمع بما فيه من غموض ومكنه من الفوز بمنصب أستاذ فلسفة في جامعة هيدلبرج. وهناك وأثناء العمل في الجامعة ألف كتاب "موسوعة العلوم الفلسفية"، فارتفع شأنه أكثر وأكثر وعين أستاذًا في جامعة برلين. وهكذا ساد عالم الفلسفة حتى نهاية حياته، وفي نفس الوقت ساد جوته عالم الأدب وبيتهوفن عالم الفن. وكان قد ولد بعد جوته بيوم واحد. لذلك تحتفل ألمانيا بهما في نفس اليوم من كل عام.

طلب أحد الفرنسيين من هيجل أن يلخص فلسفته في جملة فلم يوفق في ذلك. لكنه رد على ذلك السؤال في عشر مجلدات. وبعد نشرها اشتكى قائلاً: "لم يفهمنى في هذا العالم سوى رجل واحد، وحتى ذلك الرجل لم يفهمني جيدًا. وأغلب كتبه تتألف من مذكرات محاضراته هو أو ما دونه طلابه من محاضراته. ويصف هيجل محاضراته بأنها محاولة لتعليم الفلسفة والمنطق والتحدث باللغة الألمانية. وقد أفلح في كل ذلك.

وكتابه عن المنطق لا يحتوي أي رسائل عن التفكير، بل يحتوي على نظريات في التفكير، مثل نظريات الكيف والكم والصلة غيرها. ومهمة الفلسفة في نظره هي تشريح لجميع الأفكار التي تطرأ على تفكيرنا. والفكرة تتكون من عدة صلات، حيث لا يمكننا تناول شيء إلا بمقارنته مع ما يماثله أو يرتبط به بصلات متنوعة وحين نعرف أوجه الشبه والاختلاف بينهما.

وأكثر الصلات انتشارًا هي صلات التعارض والتناقض. فهو يرى أن كل حالة لفكرة أو شيء ما، وكل رأي أو موقف يؤدي إلى ما هو معارض له. ثم يتحد ذلك التعارض

لتشكيل كُل أعلى. ويستخدم هيجل هذه "الحركة المنطقية" في كل ما ألف من كتب وكل ما ألقاه من محاضرات.

وليست الأفكار وحدها هي ما يخضع لذلك التطور الذي يتحدث عنه هيجل، بل إن الأشياء أيضًا تخضع لذلك التطور. فكل قضية لابد أن يكون بها بعض التناقض والتعارض الذي ينتهي به الأمر إلى انسجام وتوافق.

كما أن ذلك ينطبق أيضًا على النظم الاجتماعية، حيث يكون الفتى والشاب بحاجة إلى النزعة الفردية الخلاقة التي تساعده على الإبداع. لكنه سرعان ما يندمج في نظامه الاجتماعي بعد أن يتجاوز مرحلة المراهقة.

كما رأى أيضًا أن الله (جل وعلا) هو منظم تلك الصلات التي تحرك جميع الأشياء وتدير حياتها. كما أن العقل هو جوهر الكون.

كما قال بأن الصراع بين الخير والشر ليس مجرد تصور سلبي، بل حقيقة واقعة. ولكنهما في نظر الحكمة مراحل لبلوغ الخير وتحقيقه. والصراع هو قانون للنمو. كما أن الأخلاق تشكل الشدائد في هذا العالم. ويصل الإنسان إلى السمو والكمال عن طريق الإلزام والحاجة والمسئوليات والشدة والألم.

إلا أن هيجل قد مال في السنوات الأخيرة من حياته إلى وجهة النظر المحافظة بدلاً من توريط فلسفته في التطرف. وذلك لأن روح العصر قد ملت التغيير. فكتب هيجل في عام ١٨٣٠م يقول: "أخيرًا وبعد أربعين سنة من الحروب والتوتر، يسعد الإنسان برؤية نهاية هذا الصراع، وبداية السلام." وهكذا أصبح من الطبيعي أن يتحول الفيلسوف الداعي إلى الصراع كوسيلة للتطور والرقي إلى مؤيد للقناعة والرضا. ونحن نعلم أن من يصل إلى سن الستين يميل للهدوء، لكن التناقض في أفكار هيجل كان أكبر من تحقيق السلام. وقد انقسم أتباعه من بعده إلى يمين ويسار. حيث طور كارل ماركس فلسفة هيجل وحولها إلى نظرية صراع الطبقات، وهي تؤدي بالضرورة إلى اشتراكية لا مفر منها.

أما عن نهاية هيجل، فقد بدأ يهرم بسرعة وبدت عليه كل علامات الشيخوخة وعدم التركيز، حتى أنه لم يلحظ ذات يوم ممطر أنه فقد فردة حذاء في الطين ودخل إلى قاعة المحاضرات بفردة حذاء واحدة. وعند تفشي مرض الكوليرا في برلين في عام ١٨٣١م كان هيجل من بين أول الضحايا، فمات بعد مرض لمدة يوم واحد فقط. ومات في هدوء وهو نائم. وكما شهدت أوروبا مولد ثلاثة من العباقرة في عام واحد وهم بيتهوفن وهيجل ونابليون، فقدت ألمانيا جوته وهيجل وبيتهوفن خلال الفترة ١٨٢٧-١٨٣٢م. وهكذا انتهت أهم مرحلة من ذلك العصر الذهبي في تاريخ ألمانيا.